الباب الثالث

في آدابها وحقوقها ولوازمها

يتألف هذا الباب من أربعة أقسام وفصول ومقدمة عن آدابها وحقوقها ولوازمها(*)

١ـ فصل لعمرو بن مسعدة في وصف أمير.

٢ـ فصل في حق الملك على الوزير وحق الوزير على الملك.

٣ـ فصل في حقوق الوزراء على الملوك.

٤ـ فصل يشتمل على نبذ مما جرى من لطائف جرت بين الملوك والوزراء.

(*) من إضافة المحقق.

الباب الثالث

في آدابها وحقوقها ولوازمها

ينبغي أن يُختارَ للوزارة من اجتمعت فيه الأخلاقُ الحميدة، والأفعال الرشيدة، وعُرِفَ بالآراء السديدة، وجَوْدَة التدبير، وصواب الآراء المفيدة، فتكون فيه العدالة والنزاهة والشجاعة والسياسة، وإذا كان زمانُ السلم والهُدْنة، يَصْلُح أن يكون الوزيرُ حليماً ساكناً، وإذا كان زمن الفتن والحروب، يصلحُ أن يكون شجاعاً صارماً، قال بعض الفضلاء: شرائطُ الوزارة خمسة:

الأول: العدل: ليكون منصفاً في حكمه، وتَسْلَم الرعية من ظلم غيره وظلمه.

الثاني: الأمانة: ليفيَ ما عليه، ويستوفي ما لَهُ، ولا يختزِنْ لنفسه فتَسِرْ عُمَّالُه بسيرته.

الثالث: الكفاءة: وهي العلم بالأعمال الدِّيوانية والتصرفات، ووجوه تثمير الأموال والاستخراجات، فيضع الأمور في مواضعها، ويرتب الأعمال على قواعدها.

الرابع: السياسة: فيعرف مداراةَ الجند وتأليفهم، وجمعهم وتفريقهم، ويكون خبيراً بالمكايد الحربية، والخداع، وحِفْظ البلاد والثغور والقلاع.

الخامس: أن تجتمعَ فيه الخشونة واللطف، فيخْشُن على القوي حتى يُلِينَ عريكتَه، ويَلين للضعيف حتى ينال من الإنصاف بُغْيتَه، ويكون بذلك مِقْداماً

على المخاوف، جسوراً على الأهوال إن اضطُرَّ إليها، محجماً عن التقريرات إن مَنَعَ الرأيُ السديد عنها.

وقال أبو زيد البَلْخِي[١٧] في صِفَة الوزير الكامل: ينبغي أن يكون جامعاً لخِصال الخير، ومحاسن الشِّيَم، تجتمع فيه البشاشة والوقار، والحِلْم والهيبة، والإقدام والثبات، ليضع كل شيء في موضعه، هٰذا مع العِفَّة، والنزاهة، وعزة النفس، والعلم بصناعة الكتابة وضوابطها، وحسن العبارة والعلم بالسير والأخبار الماضية فإنها تفيد الاطلاع على التجارب والعوائد وليكن ذا هيئةٍ جميلة، وصورة مقبولة، وإن كان قد بَلَغَ اشُدَّه وبلغ أربعين سنةً، كان أحمدَ وأوفق، وأكثر حكمةً وتَجْرِبة.

وقال غيره: ينبغي أن يكون الوزيرُ الفاضل ذا هيئة وهيبة، يُسكِته الحلم، وينطقه العلم، له خطٌّ، وبلاغة في إيجاز وفصاحة، وتوصُّل إلى الأغراض، وتَأتٍّ في المخاطبات، والأصلُ في ذٰلك الديانة والأمانة والنَّزاهة.

وقيل: أضرُّ ما على المَلِك أن يكون وزراؤه ونوابه يُجيدون القولَ، ولا يُجيدون العملَ، فيَرْكَنُ إلى أقوالهم، وتختلُّ المملكة بإهمالهم، أو بقبيح أعمالهم.

وقال بعض الحكماء: إذا رأيتَ الوزير يجمع المال لنفسه، فأَبْعِدْه، فلا خير فيه، لأن حُبَّ المال يغطي على العقل، ويمنعه عن مشاهدة المصالح،

---

(١٧) أبو زيد البلخي (٨٤٩-٩٣٤م) (٢٣٥-٣٢٢هـ) هو أحمد بن سهل البلخي، ولد وتوفي في بلخ. وهو من العلماء الأفذاذ وتعكس قائمة مؤلفاته الموجودة في كتاب الفهرست لابن النديم سعة اطلاع هذا الرجل ومنها: كتاب السياسة الصغير، كتاب السياسة الكبير، كتاب الشطرنج، فضائل بلخ، آداب السلطان والرعية، أخلاق الأمم، وينسب إليه كتاب البدء والتاريخ. انظر الزركلي ـ الاعلام ج٥، ص١٣١.

وإذا رأيتَ الوزير يحب الصِّيت والذِّكر لنفسه مع إهمال جانب الملك، فلا خيرَ فيه، فإنه قد كَفَرَ نعمة الملك، وهو السبب فيما نال من ذٰلك.

وكانت الأكاسرةُ تشترط في اتخاذ الوزير سلامةَ الحواسِّ، وسلامة الأعضاء، وجمال الصورة، مع ما سَبَقَ ذِكْرُه من العقل والرأي والهيبة والوقار، وغير ذٰلك. وإن انْضاف إلى ذٰلك أن يكون حسنَ الخط واللفظ، له علم بالمِساحَة والهندسة والحساب، وتصرُّف في الأمور السياسية والتدابير الملوكية، واطلاع على تواريخ الأمم، وتَجارب الأوائل، وكان صادق القول، عاليَ الهمة، شريف النفس، غير حَسودٍ، ولا غضوبٍ، ولا مَلُول، ولا مُعجَب، ولا شَره، ولا خمير، ولا هَزولٍ، ولا غَفُول، فقد كَمُلَتْ فيه آلات الوزارة، وصَلُحَ لتدبير الممالك، ولقد أشار بعض الشعراءِ إلى بعض من نال الوزارة وهو عَرِيٌّ عن هٰذه الخلال، فقال:

لا كمالٌ لا جمالٌ لا بيانٌ لا عِبَارَهْ
هٰكذا الرسمُ لَدَيكُم أين آلاتُ الوِزارَهْ

ولبعضهم في مدح الوزير أبي نصرٍ العُتْبِي[18]:

جَمَع الله للوزير أبي نصرٍ خِصالاً تعلو بها الأقدارُ
خَطُّه روضةٌ وألفاظه الأُزْ هارُ يَضْحكنَ والمعاني ثِمارُ

---

(١٨) أبو النصر العتبي: محمد بن عبدالجبار العتبي من عتبة بن غزوان (١٠٣٦م - ٤٢٧هـ) من الري أصلاً نشأ في خراسان وهو مؤرخ وشاعر انتهت إليه رياسة الإنشاء في خراسان والعراق ومن مؤلفاته: لطائف الكتاب في الأدب، واليميني نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ويعرف بتاريخ العتبي شرحه المنيني في مجلدين. الزركلي ـ الأعلام ج٧، ص٥٦.

فصل لعمرو بن مسعدة[١٩] في وصف أميرٍ

إني الْتمستُ لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا لطفٍ في خلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هذَّبتَه الآدابُ ، وأحكمته التجارب، إن ائْتُمِن على الأسرار كَتَمَها، وإن قُلِّد مهمات الأمور نَهَضَ بها، يسكته الحلمُ، ويُنطقه العلمُ، تكفيه اللحظة، وتُغنيه اللمحة، له صَوْلَة الأمراء، وأَناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفَهْم الأدباء، يسترقُّ قلوب الرجال بحلاوةِ كلامه، ويُعجِزُ الفضلاءَ بفصاحة لسانه وحُسن بيانه، ويُودِعُ محبتَه القلوبَ بلطائف إحسانه، إن أُحسِنَ إليه شَكَر، وإن ابتُلِي بالإساءة صبر وانتظر، فهٰذا الذي يَصْلُح أن تُعقَدَ به الأمور، ويفوض إليه سياسة الجمهور.

قال أبو الفتح البُسْتي في الصاحب بن عَبَّاد[٢٠]:

فتًى جَمَعَ العَلْياءَ علماً وعِفَّة ... وبأساً وجوداً لا يُفِيق فُواقا
كما جمع التفاحُ حسناً ونُضْرة ... ورائحة محبوبة ومَذاقا

---

(١٩) عمرو بن مسعدة (-٨٣٢م - ٢١٧هـ) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول أبو الفضل الصولي من وزراء المأمون. كان كاتباً بليغاً، وتوفي في أضنة (أذنة) تركيا. انظر الزركلي - الاعلام ج٥، ص ٢٦٠.

(٢٠) الصاحب بن عباد (٩٣٨-٩٩٥م) (٣٢٦-٣٨٥هـ). هو إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم الطالقاني استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولد في الطالقان من أعمال قزوين وتوفي في أصبهان. =

. . . . . .

= ومن كتبه: الوزراء والكشف عن مساوىء شعر المتنبي، وعنوان المعارف، وذكر الخلائف والأعياد، وفضائل النيروز وله شعر فيه رقة. الزركلي ـ الاعلام ج١، ص٣١٣.

فصل في حق المَلِك على الوزير
وحق الوزير على الملك

جُمْلة ما يلتـزم الـوزراء من الحقـوق لملوكهم ثلاثـة: الإخـلاص في النصيحة، وبَذْل الجهد في إقامة صحة المملكة، ودَفْع الآفات عنها.

وأما تفصيل ذٰلك، فهي حقوق متعددة: منها مستحبَّة، ومنها متأكّدة، أولها الإخلاص في النصيحة والوُدِّ، فلا يُضْمِر له غشاً، ولا يَدَّخِر عنه مالاً ولا نفساً، ولا يداجِي عليه عدواً، ولا يطوي عنه نصيحة يحتاج إلى إعلامه بها.

ومنها إظهار محاسنِه إن خَفِيَت، ونسبة أفعال الخير إليه، وستر مساويه إن ذُكِرت، وتتبع من يخالف ذٰلك حتى يُزِيلَه عنه، إما بقَمْع، أو بإحسان.

ومنها التواضعُ له، والإجلال لقدره في الحضور والغَيْبة.

وقد قيل: كلما زادك الملكُ إكراماً، فزده تواضعاً، ويتقاصر فيما يضاهيه من تجمُّل، أو تنعُّم، أو مقاومة في مسكن أو مركب أو ملبس أو حَشَم، وإذا فهم أن له غرضاً في شيء مما عنده، تركه له.

ومنها تنفيذ أوامره بعد أن يتأمَّلَها، فإن رأى خللاً سَدَّه، أو خاف مكروهاً سعى في إزالته، والأدب في ذٰلك أن يجيبَ بالسمع والطاعة، ويوقف الإمضاءَ بنوع من التعاويق، ثم يراجع الملك على خَلْوة، فإن تعذَّر، فبمكاتبة، ويوضح ما ظهر له من الرأي وما يخشاه من الخلل، ثم يعمل بما يوافقه عليه ويقرِّرُه معه.

قال أفلاطون: أول أدب الوزير وسياسته: أن يَتأمَّل أخلاق الملك، فإن كانت شديدةً، عامل الناس باللطف ولِينِ الجانب، وإن كانت لَيِّنةً، عاملهم بقوة وصرامة غير مُفرِطَة، ليعتدل التدبير.

ويقال: إن معاوية كتب إلى زياد: ليكن بيني وبينك في سياسة الرعية شعرةٌ ممدودةٌ، إن شددتُ طرفها فأرخِها. وإن أرخيتُ طرفها فاشدُدْها، فإنَّا إن شَدَدْنا جميعاً انقطعت.

وسبب هٰذه الرسالة: أن بعض أمراء العرب نَقَمَ عليه معاويةُ، فأبعده، فسار إلى زيادٍ فقَبِلَه وأنزله، ثم خاف من إنكار معاوية عليه، فَبَعَثَ يستأذنُه في أمره، فأجابه بذٰلك الجَواب.

ومنها تعجيلُ عطاياه وأوامره، سيَّما إذا علم اعتناءَه به أو تأكيده الوصية في حقِّه، وكذلك يجب تعجيلُ ما يطلق لولاة الثُّغور والحروب والغيوج[٢١] والرسل، فإن هٰذه أمورٌ إن أُخِّرت عن أوقاتها، كَثُرت مضارتها، والملوك تغضبُ لرَدِّ أوامرها، وتوقيف أعطياتها وهباتها، إلا إذا كان الوزيرُ ممَّن قد فَهِمَ أن مراد الملك التوقُّفُ فليُمْطِل، ولا يُشعِر أحداً أنه رأي الملك، فإنه لؤم لا يُنْسَبِ إليه.

ومنها السعيُ في عمارة البلاد، وإصلاح خَلَلها، وتثمير الأموال والمزروعات وتحصيل آلات العِمارة، والترغيب في ذٰلك، فإن بالعمارة تَغْزُرُ الأموال، وبالأموال تَشْمَخُ الممالك، وتكثر الأعوان.

ومنها حُسن النظر في أمر الجند، فلا يُؤخِّر عنهم العطاء، ولا يُلجئهم إلى الشغْب والغوغاء، ويَسُوسُهم بما يديم طاعتَهم، ويؤلف كلمتهم، وقد بَيَّنتُ

---

(٢١) الغيوج: الذين يحرسون. القاموس: ص ٢٥٩.

سياساتِ الجند في كتابي «في الحروب»، وإذا اعتدلت سياستُهم استقامت مع الملك سيرتُهم، وأُمِنَت مضرتُهم.

ومنها القيام بمصالح الملِك الخاصة في ترتيب آلاته، ودُوره ومطابخه، ونفقات غِلْمانه وحشمه ودوابِّه، فلا يكون في ذلك توقف ولا تقصير، وكذلك لا يَغْفُل عن أمر حراسة الملك وحفظه، وأن يَنْدُبَ لذلك من يوثق به، ولا يَغْفُل عنه في ليلٍ ولا نهارٍ، ولا في أوقات نومه, ويقظته وخلوته، سيما في وقت أُنسِه أو سكره، فإن ذلك مما يجب أن يُمْعِنَ فيه النظر، ولا يتساهل فيه.

وبلغني أن المأمون خرج في عشيةِ يومٍ من مقصورته إلى الدار المعروفة بدار العـامَّـة، فرأى الحسنَ بن سهـل جالساً فيها يَنظُر في الأعمال، وينفذ الأشغال، فسأل عنه فقيل: إنه من الصبح هنا، ولم يمضِ إلى منزله، فلما رآه الحسنُ، قام مبادراً إلى بين يديه، فقال: تعبتَ اليومَ يا أبا الفضل، فقال: لا أَعُدُّ تعباً ما كان لراحة أمير المؤمنين، وفي خدمته. فاستحسن منه الجوابَ.

وقال عبدالحميد الكاتب: أتعب قدمك فكم تعب قدم قدمك.

ومنها أن لا يعارضَه في خواصِّه وبطانته، ولا في حَرَمه وأصاغره، فإنه إليهم أمْيَل، وهم عليه أقدر، ولا يستكثر لهم العطاءَ، ولا يمطلهم في الصِّلات، فإن كان فيهم من يَشِين الملكَ تقريبُه، أو يخاف غائلته، فيتلطف في إيصال ذلك إليه على لسـان غيره، أو يُعَـرِّض به في ضمن الحكايات والإشارات، دون التبكيت والتغيير، حتى لا يتمقت إليه بإبطال أغراضه، وتنغيص مسرَّاته، فكم قد عادت هٰذه بمضرات على قائليها حيث لم يتلطفوا فيها.

فصل في حقوق الوزراء على الملوك

وأما ما ينبغي للملك أن يَعتمدَ في حقه، وهي من الحقوق السياسية المصلحة على المُلك:

فمنها أن يمكِّنَه من التصرف، ويحكمه في التدبير إن كان وزيراً مطلقاً، حتى تنفذ تصرفاته، وتستقيم سياسته.

ومنها أن يَرْفَع من قدره، وينوِّه باسمه، بما يتميَّز عن أبناء جنسه بتشريف في ملبسه ومركبه وموكبه ومجلسه، وفي تلقيبه وتكنيته على ما تجري به عادةُ اصطلاح أبناء الزمان.

ومنها أن لا يَسمَعَ فيه كلام الوُشاة والمتعرضين، فإنه مقصود ومحسود، والحَسود لا يُبقي ولا يَذَرُ، بل يجب بأن يعرض له بما بلغه عنه بما يكرهه أو لا يستصوبُه، فإن كان صحيحاً، اعتذَرَ ولم يَعُدْ، وإن كان كذباً وتمويهاً، بَرْهَنَ عن نفسه ليزول الشك فيه.

قال المتوكل لأحمد بن أبي دُؤاد: قد رُفِعَت إليَّ سِعايات في حقِّك. فقال: لا عَجَبَ أن أُحسَدَ على مكاني من أمير المؤمنين.

وقال بعضُ حكماء الفُرس: على الملك لوزيره أربعةُ حقوق: لا يؤاخذُه بغير حق ثابت، ولا يَطمَع في ماله بغير خيانة، ولا يقدم عليه مَنْ هو دونه بالكفاية، ولا يمكِّنُ منه عدواً.

ومنها المَشُورة في الأمور، فهي وإن كانت مشتركةً بين العقلاء، إلا أنها بالوزراء ألزم، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصـــل

يشتملُ على نُبَذٍ من لطائف جَرَتْ بين الملوك والوزراء

لمَّا استَخْلَف المأمون على العراق الحسنَ بن سهل، وخرج ليودِّعَه، فلما أراد الرجوع من توديعه، قال له: اذكُرْ يا أبا محمدٍ حاجة إن كانت لك. قال: نعم يا أمير المؤمنين، احفَظْ عليَّ من قلبك مالا أستطيعُ حفظَه إلا بك.

وسمعتُ الكمال بن جميل يحكي: أن الوزير عون الدين بن هُبيرة كَتَب إلى الخليفة المستنجد بالله يتودَّدُ إليه ويشكره:

أقسمتُ بالآيات والكلمات من نصِّ الكتاب
وبباسطِ الأرض القرار وسامكِ السبع الصِّلاب
إني أحبُّك مخلصاً من غير شك وارتياب
وأحب مُلْكَك لله ما بين بُعدٍ واقتراب
فلأنصَحَنَّك ما حييت وأجعلنَّ رضاك دائماً
ولأُنفِقَنْ فيك الحياةَ وأشكرنَّك في التراب